قصة اليقين

مريم السالم

مصدر هذه المادة:







بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبيـــاء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إلى كل الحائرين..

إلى كل التائهين .. الغافلين.

الباحثين عن السعادة والفوز والفلاح في الدنيا والدين..

نحكي لهم قصة اليقين..

نحكي لهم عن التائبين.

نقول لهم مخلصين مشفقين ناصحين:

عودوا مع العائدين..

توبوا مع التائبين..

كونوا من المؤمنين الصادقين..

فهؤلاء صاروا هم الرابحين .. هم الفائزين..

كلنا نودع

كُلُّ ابـــنِ ُانْثَـــى وَإنْ طَالَـــتْ سَـــلامَتُهُ
يَومًـــا عَلَـــى آلَـــةٍ حَـــدْبَاءَ مَحْمُـــولُ

كانت تصغرني بسنة واحدة، ورغم أننا مجموعة أخوات إلا أننا كنا أقرب اثنتين لبعض.

ظهرت عليها علامات الصلاح والاستقامة ولله الحمد، عشت معها لحظاتٍ لا تُنسَى، كان منها تلك الرحلة التي قُمنا بها ســـويًّا لزيارة أختنا المريضة في مدينة أخرى لا تبعد عنـــا ســـوى بضـــع ساعات.

وعندما رأيناها بصحَّةٍ جيدةٍ قرَّرنا الذهاب معها في نزهـــةٍ إلى البحر .. وفي الصباح الباكر من ذلك اليوم كان الجو عليلاً والبحر ساكنًا سكون الليل، لكنه يحمل في طياته ما لم يكن في الحسبان!

وفي بداية الأمر كان أخي الذي يصغرني بثلاث سنوات يحاول أن يخدعنا .. يُدخِل رأسه في الماء ويُخرجه ويشير لنا بيديه ونحـــن نرمقه، من بعيد .. كانت أمي خائفة .. حائرة .. لا نعلـــم لمـــاذا هبَّت مسرعة؟! سارت باتجاه أخي وأخذت تناديه: يا بـــني، انتبـــه لنفسك.. اخرج من الماء .. فما يتمالك هو إلاَّ أن يضحك.

في هذا الوقت كنَّا نعدُّ طعام الإفطار .. تناولناه على عجل .. وقمنا نلهو ونلعب .. جَرينا بشدَّة على الرمال الباردة حتى وصـــلنا إلى الشاطئ .. فإذا به مليء بـــالقواقع والأصـــداف والحيوانـــات البحرية الغريبة.

كان المكان خالياً إلا من أناسٍ نراهم من بعيد ولا نكاد نميـــز أشكالهم.

دخلنا البحر الواحدة تلو الأخرى ومعنا أمنا الحنونة .. كانت أيدينا متشابكة، و لم نبعد عن الشاطئ إلا مقدار متـــرين فقـــط .. سحبت يدي من بين أيديهنَّ وأخذت أجري لأدخـــل قبلـــهنَّ إلى

البحر .. ووجدت نفسي أسبح بخفَّة .. والبحر يجرُّني إليه.

وفجأة..!

سقطت في حُفرة، فحاولتُ أن أتدارك القـــدم الأخـــرى .. سحبتها بكلِّ قوتي، ولكني لم أستطع، فسقطت .. وكان القدر.

كنت أعتقد أنني أستطيع الخروج بقليلٍ من المحاولة، إلا أنـــني أحسست بثقل جسمي وعُمق الحفرة .. فمـــا كـــان مـــني إلاَّ أن أخذت في الصراخ: أمي أمي .. الحقيني .. وأشرت بكلتا يدي .. فجاءت أمي مسرعة نحوي .. ولكن يا إلهـــي .. مـــا لي أراهـــا بطيئة؟!.. بطيئة جدًا .. يبدو أنها لن تدركني..

حينها أخذت الأفكار تـــدور في رأســـي .. وتـــدور .. الآن سأموت .. سأودِّع الدنيا .. سينتهي كلُّ شيء .. بهذه السرعة!

نعم .. بهذه السرعة تنتهي حياتي .. ولكن .. إلى أين أذهـــب ؟! إلى داخل البحر! .. ثم إلى أين؟!

إلى التراب .. إلى الدود .. إلى الحساب والجزاء ..

ماذا قدَّمت؟!

ماذا عملت؟!

ماذا سأقول لربي؟! والذنوب.. والمعاصي.. لا يا ربي.. لا..

أنقذني يا رب .. أنقذني يا رب .. أنقذني ..

سأتوب .. سأعود .. سأصلي .. سأصوم .. سأقوم..

لا .. لا أريد أن أموت .. أريد أن أعمل .. أن أتزوَّد للقائك يا رب..

أشهد ألاَّ إله إلا الله .. وأنَّ محمدًا رسول الله ..

وجاء الفرج ..

ها هي أمي .. ها هي أمي .. قد وصلت إليَّ .. في اللحظات الأخيرة .. لك الحمد يا رب.

أمسكت بي .. تجرُّني إليها .. كدت أطير من الفرحة .. عندما لمست يدها يدي .. أحسست بالحياة .. بالنجاة .. ولكنها ثوانٍ .. وما لبثت هذه الفرحة أن زالت .. لقد سقطت معي هي الأخـــرى .. وها نحن نوشك على الغرق .. لحقت بنا أختي .. ولكن لا فائدة .. ثم جاء أخي الأكبر يتبعه الأصغر .. بل حتى أختي الصـــغرى .. الكل يريد أن يساعد .. أن يخرجنا من هذه الدوامة .. ولكن يبدو أنه لا أمل في النجاة .. فالمكان عميق .. والموقف شديد .. العائلة بأكملها ستغرق .. جميعها تستنجد وتطلب العون .. وأنا أراهـــم كلَّهم غرقي .. كلٌّ يريد الخلاص .. وعادت إليَّ دوامة التفكير من جديد..

ترى .. هل سنموت جميعنا؟!

ومن سيبقى؟! .. لابد أنها لحظة الاحتضار..

أصبحنا وحدنا في هذه الدوامـــة .. لا أحـــد .. لا مجيـــب يسمعنا..

أختي المريضة — التي جئنا لزيارتها — كانت مُمدَّدة على الرمل على بعد عشرين مترًا من الشاطئ تستمع لضحكاتنا وهي بين النوم واليقظة .. فجأة سمعت الصراخ والنداء .. انتبـــهت .. لم تكـــن تُصدِّق في بداية الأمر .. ولكنها وجدت نفسها تجري بسرعة رهيبة نحو الصوت .. سبحان الله، هذه المريضة والتي تحمل بين أحشائها طفلاً بلغ شهره السابع تجري بهذه السرعة وتأتي إلينا بتلك القوة .. وبالرغم من ذلك لم تستطع فعل شيء ..

وفي نهاية المطاف جاء شخصان كانا قد سمعا الصوت من بعيد ..فأنقذوا من أنقذوا وخرج البعض من نفسه بمساعدتهم .. وأنا ما أزال أغوص تحت الماء .. وقد كنت أكثرهم بعدًا .. فأخرج الرجل إحدى أخواتي ثم جاء ليساعدني في الخـــروج .. وعنـــدها فقـــط تنسَّمت هواء النجاة .. وجاء الفرج حقًّا..

أحسست بالحياة مرة أخرى تعود إليَّ ويتجدَّد لقـــائي بهـــا .. ولكن هذه المرة يقينًا!

نحن الآن على الشاطئ، نعدُّ أنفسنا عدًّا ونتأكَّد .. فجأة تصيح أختي الكبرى .. أين أمي؟!

وأجبتها: لقد أفزعتِنا .. انظري إليها، إنها هنا.

ثم تعاود الصياح مرة أخرى، ولكن هذه المرَّة بصوتٍ يشـــوبه الحزن والخوف .. أين «وفاء»؟!

تلفَّتُّ يمنةً ويسرةً..

نعم، أين وفاء؟!

أين أختي الصغرى؟!

نظرت إلى البحر فرأيتُ منظرًا مهـــولاً .. صـــرخت بـــأعلى صوتي.. انظروها .. إنها هناك .. لا نرى سوى ثيابها تطفو علـــى الماء .. وشعرها الطويل يسبح من خلفها ..

يسرع ذلك الرجل الذي أنقذنا ويسحبها إلى الشاطئ .. ننظر إليها جميعًا .. هذه «وفاء» .. نعم هي..

ولكن لماذا لا تضحك؟!

لماذا لا تتحرك؟!

عيناها شاخصتان .. يداها متدليتان .. الماء يتدفق من أنفهـــا وفمها وأذنيها..

أنظر إليها .. أمسك رأسي .. أُغمض عينيَّ بقوة وأفتحها مرَّةً أخرى .. أحقًّا ما أرى؟.. أهذه نهاية المخاض؟! هذه هي النهاية .. أنا الأولى وهي الأخيرة؟! أنا أعيش وهي تموت؟! أيعقل هذا؟!

لا .. لا .. لقد كانت قبل قليل تلعب معـــي وتضـــاحكني .. تشاركني الأكل والشرب .. تقفز هنا وهناك!

أهي ميتةٌ أم حية؟!

كان يقيني أنها ميتة .. ولكن هناك بقايا أمل في أنها ما زالـــت على قيد الحياة .. خاصة وأنَّ إخواني قالوا ذلـــك .. أخـــذوها إلى المستشفى وجاء الخبر كالصاعقة..

وبعد مُضي ست ساعات على الحادث لم يخبرنا أخي .. بـــل قال إنها ما زالت في غرفة الإنعاش .. وهي قد فارقت الحياة منـــذ رأيتها هناك على الشاطئ..

اختارها الله سبحانه وتعالى لتكون شهيدة .. رغم أنني كنـــت أوَّل من غرق وآخر من خرج، لكنها الأقدار، تجري لا خيـــار .. وهنا يأتي الإيمان بالقدر خيره وشره .. ونعلم علم اليقين مصـــداق قول رسول الله ﷺ: «**ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطـــاك لم يكن ليصيبك**»..

رحمك الله يا وفاء رحمةً واسعةً، وغفر لـــك وتقبَّلـــك مـــن الشهداء.. إنه سميع مجيب الدعاء.

لقد كان لهذه الحادثة أثر عظيم في نفوسنا.. فقد تاب من كان عاصيًا ورجع من كان مُعرِضًا.. ﴿**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُـــوَ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾.

وكنت أقول لنفسي:

- ألا يمكن أن يكون لك مثل هذا اليوم؟!

- ماذا قدمت؟! وماذا عملت لهذا اليوم؟!

أخذتُ أحاسب نفسي وألومها كثيرًا، وأتذكر لحظات الموت وأنا غريقة في البحر .. فيقشعرُّ بدني ويهتزُّ كياني..

عدنا إلى منزلنا الذي خرجنا منه..

في مدينتنا كلُّ شيءٍ غريب.. الشوارع.. البيوت.. رائحـــة

الجو.. وكأنني أدخلها لأول مرة!

وصلنا البيت.. وكانت أختي المريضة لا تستطيع الاقتراب نحو الباب من شدَّة البكاء..

أما أنا فقد حاولتُ أن أبدو أقوى منها.. دفعت الباب بقوة.. دخلنا البيت شعرنا بشعور غريب.. كأننا تركناه منذ سنين.. رغم أنَّ تلك الرحلة استغرقت أسبوعين فقط!

جال بصري فيما حولي.. فرأيت ما يُبكيني ويُقطِّع فـــؤادي.. هذه غُرفتي وغرفتها .. هنا مخدتها.. ملابسها.. حقيبتها.. دفاترها.. عطرها الذي أهدتني إياه قبل رحيلها.. أين هي؟!

لقد جاء الليل، أنظر إلى فراشها، فارغ لا أحد عليه، فيقشـــعرُّ جسمي وتصطك أسناني .. كم سهرنا سويًّا نتحدَّث حتى يجـــيء النوم .. كم ذهبنا سويًّا إلى المدرسة أنا وهي .. من سيذهب معي الآن؟! سأذهب وحدي!

ولكني أقف لحظات أتأمَّل وأقول لنفسي:

سأذهب أيضًا وحدي إلى قبرٍ لا أنيس فيه، ومنـــزل لا ســـعة فيه.. فماذا أعددت؟!

كلنا سائرون نحو الأجل المحتوم.. لكنَّ الأهم، مـــاذا قـــدمنا لأنفسنا؟! وهل تزوَّدنا لسفرنا البعيد أم ماذا؟

ســـؤال..

نداء أوجِّهه لنفسي أولاً ولجميع إخواني وأخواتي في الله ..

التوبة التوبة.. الأوبة الأوبة.. الرجـــوع إلى الله.. تقـــوى الله تعالى.. تدارك العمر.

ويا ابن آدم..

إنما أنت أيام، كلَّما ذهب يوم ذهب بعضك، وكلما نقص يوم نقص عمرك وقرب أجلك.

والحمد لله رب العالمين ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾.

